

ظاهرة الاتصال بالولي الصالح في الجزائر

احمر الحاج

جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس

1 - ماهية الاتصال:

أ- لغة:

أورد ابن منظور في كتابه لسان العرب أن الاتصال هو: وصل الشيء وصلا وصلة، والوصل ضد الهجران. يقول ابن السيدة: الوصل خلافا للهجران، وحل الشيء بالشيء يصله صلا وصلة¹. كما ورد الاتصال في القاموس الموسوعي لعلوم الإعلام والاتصال على أنه فعل إقامة علاقة مع شخص ما، أو أن يجعل شيء مشترك مع شخص آخر أو جماعة من الناس، وبصفة عامة الاتصال هو جعل شيء مشتركاً².

ب- اصطلاحاً:

وتعني comunis مشتقة من الكلمة اللاتينية Communication عن كلمة اتصال Shaning. المشاركة أي الاتصال عملية يقوم بها الشخص في ظرف ما، تجعل المعلومات أو الآراء أو الاتجاهات أو المشاعر إلى الآخرين بهدف ما، عن طريق الرموز، بغض النظر عما قد يعترضها من تشويش³. "يهدف إلى تقوية الصلات الاجتماعية في المجتمع عن طريق تبادل المعلومات والأفكار والمشاعر التي تؤدي إلى التقاسم والتعاطف والتخايب أو التباغض و بالتالي فالالاتصال عملية تفاعل اجتماعي" social interaction⁴.

2 - أنواع الاتصال داخل الضريح:

إن النظر إلى الأنواع الاتصالية داخل الضريح متنوعة ومختلفة وقد اعتبرنا أن الضريح والزائر على حد سواء منظومة اتصالية ويمكن تصنيفها كالتالي:

1-2 - حسب اللغة المستخدمة:

اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكار ومن هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة وأبجدية الصم والبكم و الطقوس الرمزية لأشكال وصيغ الاحترام، والإشارات... ورغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة المذكورة. و بالتالي يتبين لنا من هذا التعريف وجود اتصاليين في هذا النوع، اتصال لفظي وغير لفظي.

أ- الاتصال اللفظي:

هذا النوع من الاتصال جلي في حياتنا العادية اليومية

فالزائر يستخدم اللفظ كوسيلة لنقل رسالته إلى الولي المتمثلة في مجموعة من المطالب والأمانى التي يرجو تحقيقها من خلال اتصاله بالولي، فيدخل الزائر في حوار معه رغم الغياب البيولوجي لهذا الأخير ويقول في هذا الصدد عبد الغني منيب "لم تنته القدرات لهؤلاء المدركين بموتهم البيولوجي..."⁵.

وتقول سيدة في هذا المجال: "يا سيد الشيخ إنا مسلمين مكتفين لك، جنتك و طامع فيك تقيتنا باش نبرا".
فهنا نلاحظ أن هذه السيدة استخدمت اللفظ في تمرير أو تبليغ رسالتها المتمثلة في طلب الشفاء من الولي سيد الشيخ الذي يعتبر في هذه الحالة مستقبلا للرسالة الزائرة، والاعتقاد السائد عند النسوة الزائرات هو أن هذا الولي حاضر لسمع شكوايهم وينجدهم ويحقق أمانيتهم.

ب - الاتصال غير اللفظي:

في الصفة الثانية الاتصال من حيث اللغة نجد الاتصال غير اللفظي ونقصد به الاتصال الساكن أو الصامت، حيث تغيب فيه اللغة المنطوقة تماما وهنا نستطيع القول أن لغة الاتصال تتمثل في جملة من الإشارات والرموز وكذا لغة الحركة والأفعال ولغة الأشياء والتي سنعكس بها أمثلة من عملنا الميداني.

2 - 2 لغة الإشارة والرمز:

لغة الرمز: يقول بيرس "الرمز هو علامة تحيل إلى شيء الذي تشير إليه بفضل قانون غالبا ما يعتمد على التداعي بين الأفكار العامة.

أما لغة الإشارة: فيعرفها بيرس: "على أنها علامة تحيل إلى الشيء الذي تحيل إليه بفضل وقوع هذا الشيء بالواقع) إذن الإشارة تحل محل اللفظ لوقوع هذا النوع من الاتصال".

وأحسن مثال في هذا الصدد هو الطواف بقدمين حافيتين حول التابوت وهنا لغة صامتة ترمز بها الزائرة عن احترامها وتقديرها لهذا الولي، فنجد بعض الزائرات يطفن بالضريح سبع مرات ويعبر هذا على اعتقاد الناس بأنه حج أصغر.

لغة الأشياء:

إن لغة الأشياء تكون مصدرا لبث الرسالة إلى الولي تستخدمها الزائرة لتعبر عن معاني وأحاسيس ويكون الهدف المتوفى منها هو جلب البركة أو التطيب أو جلب الحظ.

في المجال تقول سيدة: "نعطي للمقدمة حق الزيارة باش سيد الشيخ يرضى علينا ويوصل دعوتي ربي، وتنقضي حاجتي لخاطرش حق الزيارة هو صدقة، حق البركة يعطيها لنا سيد الشيخ..

يمكن اعتبار أركان العملية الاتصالية هذه المقابلة هي كالاتي :

مرسل	←	الزائرة
المقدمة	←	فتاة (وسيلة)
الولي	←	مستقبل
الرسالة	←	طلبات مع جلب البركة

2 - 3 لغة الحركة والأفعال :

هذا النمط من اللغة الاتصالية الساكنة تكون دوما غير متوقعة بالنسبة للمتلقي ، فهي رسالة ربما لحد ما غير مقصودة لصدورها من طرف المرسل في الأوقات الحرجة تعبر باعتبارها لغة دقيقة جدا .

و تترجم لغة الحركة في ظاهرة زيارة الأولياء الصالحين مثالا في حركة "مسلمين مكتفين" (و تلفظ بلفظ "مسلمين مكتفين" و تعبر X و هي وضع اليد اليمنى على اليسرى على شكل (هذه الحركة على مدى خضوع الزائر للولي كما تظهر لغة الحركة أيضا في هذا النمط الاتصالي في أخذ قطعة قماش أخضر و مسحه على الوجه تيمنا و تبرك به ، بالإضافة إلى طلاء الحناء في موضع المرض و تتجلى لغة الأفعال في هذا المجال فيما يلي :

* الطواف بالضريح سبع مرات متتالية ، هي حركة مستوحاة من الطواف بالكعبة .

* تقديم للضريح قربان أي ذبح أمام القبة الأنعام و هذا تحضيرا لما يعرف بالمنطقة بالوعدة .

2- عدد المشاركين في العملية الاتصالية :

ينبني الاتصال على الحوار في أغلب المواقف ، لكن يتغير لونه و نوعه حسب مجموعة الحوار و يندمج حجمه كلما حصر في قفص معين ، و هنا نجد اتصال ذاتي ، شخصي وسطي ، جماعي و قيل البعيد والغريب .

أ - الاتصال الذاتي :

و هو العملية الاتصالية التي تتفاعل و تأخذ مكانها داخل المرء نفسه و هي إذن عملية شخصية لجنة يتم فيها مخاطبة الإنسان لذاته...⁶

و من هذا النوع من الاتصال في زيارة ولي سيد الشيخ في مخاطبة الزائر لنفسه و اعترافه ، كما تتجلى في قطع عهد على نفسه نذر أو مشاطرة بما يعرف بالمنطقة ، مثلا : نذر : ذبح أمام ضريح الأضحية أو إقامة الولائم بما يعرف بالوعدة و هنا ينتج أنواع أخرى للاتصال

ب - الاتصال الشخصي :

إن الاتصال الشخصي ، اتصال يكون بين شخصين أو أكثر يستوجب الحضور الفيزيقي أي التفاعل عن قرب و بهذا يقول أبو الأصبع صالح :

”الاتصال المباشر بين الناس ، ويعرف باتصال المواجهة ويتم وجها لوجه بين شخصين أو أكثر حيث يمكن فيه أن نستخدم حواسنا الخمس و يتيح هذا الاتصال التفاعل بين هؤلاء الأشخاص و من المتلقي⁷ feed back التعرف على الرجوع ويتجلى هذا النوع من الاتصال عند التقاء الزائر مع مقدم أو حارس القبة أو مع الزائر و زائر آخر. فربما يركز الحوار الدائر بينهما على سبب الزيارة أو التعرف فيما بينهم و يقيمون علاقات اجتماعية.

ج – الاتصال الجماعي :

هذا النوع من الاتصال يتجسد كثيرا في اتصال داخل الضريح بتنوع العناصر الاتصالية (المرسل، الرسالة، المتلقي)، وكذلك من حيث المكان و الزمان حتى في الغيب، و الأصل من هذا وجود الدائرة الحوارية الاتصالية بين مجموعة أو أكثر من الأفراد المجتمعين فيما يعرف بالوعدة بين الزائر و الضريح، و نجد في هذا الاتصال قسمين، اتصال جماعي قريب و اتصال جماعي بعيد و نلمس هذا الأخير في ظاهرة زيارة الضريح مباشرة عندما نلاحظ البعد المكاني خاصة بين المرسل و المتلقي، و يتجلى في اتصال الزائرة بالمقدمة في مكان ألا و هو الضريح أو القبة أما الاتصال الجماعي القريب، لا وجود لبعد مكاني أو زمني و لا حواجز مادية، بل يوثق بوجود الحركية حيث تقول سيد في هذا المجال: ” نجو نزوروا و نتافقوا مع بعض، واحد يدير لفظور واحد يدير الغداء“ فالاتفاق هنا دليل على الاتصال بين الزوار فهنا نجد عدد كبير من المشاركين و البقعة المكانية واحدة

3- أنماط الاتصال :

يصبح الاجتهاد في هذه الحالة لتأسيس بما يسمى بالتجلي أي تظهر بعض أنماط الاتصال فوق مقام معين حسب تنوع الأساليب و الأقطاب الاتصالية و حتى المكان و الزمان و بهذا يدرج الاتصال في تحقيق وظيفة معينة باسمها و بهذا النمط أنواع وأشكال.

أ – النمط الديني :

تبقى الطريقة الشيخية كباقي الطرق الصوفية تؤدي عدة وظائف و أهم هذه الوظائف نجد تعليم و تحفيظ القرآن في كتابات تابع للزاوية الشيخية كما تعمل أيضا على شرح و تبين نهج الطريقة الشيخية من أجل كسب مردين جدد.

كما يتجسد نمط الاتصال الديني في ما يسمى "بالحضرة" وهي اتصال روحي بحيث تصبح كل الجوارح تفكر و ليس اللسان والقلب فقط وهذا من خلال بعض الأذكار والأدعية والسور القرآنية مع التفكير في الله هكذا شيئاً فشيئاً حتى يعلو الذاكر على المستوى الروحي.

ب - النمط الاجتماعي :

يتجسد هذا اللفظ من الاتصال في التقاء الزوار في نقطة تقاطع ألا وهي الولي، الذين يأتون إليه من كل المآرب على اختلاف المشارب ويقول مقدم قبة سيد الشيخ "يجو من كل طريق من الخارج، فرنسا، العراق، القاهرة، كبار وصغار

حلقات الذكر :

من أهم مظاهر الاتصال الاجتماعي لأن خلال هذه الحلقات يتم توطيد العلاقة بين الذاكرين فيجتمع كل الفقراء أو إتباع الطريقة، و كما يطلق عليهم في غالب الأحيان المرددين مع شيخ الطريقة أو مقدم الطريقة الذي يأخذ مكان الشيخ.

كما يتجلى لنا هذا النوع من الاتصال في مظهر آخر ألا وهي الوليمة التي تسمى "الوعدة" هي الوليمة التي تقام للتصدق.

كيف تقام الوعدة؟

ترحل القبيلة المنتمية لهذا الولي الصالح أو ذاك و معها بعض القبائل للإقامة عند الضريح الذي تنصب من حوله الخيام، و في يوم تقوم كل خيمة بذبح شاة أو شاتين و تحضر الوليمة و تطعم كل من جاء لحضور هذه الوعدة و تسقيه الشاي و في هذا اليوم يقام حفل للرجال و آخر للنساء.

فعليه تعتبر نمطا اتصاليا اجتماعيا أين يعتقد الناس رجالا و نساء علاقات اجتماعية، حيث يلتقي الرجال في سرح ممتد يدي "الفرعة" يشكلون حلقات ينشطها ضارب أو ضاربين على الدف رفقة آلة عزف تشبه البوق تدعى "الغايطة"، بالإضافة إلى مجموعة من الرقصات الفلكلورية التي تعتبر من بعض الأنشطة الفلاحية.

أما النسوة فيجتمعن داخل القبة يرددون أهازيج شعبية تتناول معظمها في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم و هناك أشعار شعبية تعرف بالقول : وهو كلام موزون غير مقفى يؤدي من طرف بعض المدعوات أو جلهن، و على أنغام البندير "الدف" التي ترافقها التصفيفات و من بين هذه الأشعار :

* ربحو بصلاة النبي هو فالي

* لها لركاب دافعه للقرمامي

* القرعة هايضة عليا مقواني

- * لي يبقية خاطري ما هنامي
- * القوايط والطبول والعلفة فاني
- * رحل البيضة المير ماله ما جاني
- * جمعة والخميس هادف قيواني

ج - النمط السياسي؛

تعتبر الطقوس و الشعائر التي تقام داخل الضريح استمرارية رمزية لوظيفة الطرقية و مؤسساتها الحيوية (الزوايا) التي لعبت دورا اجتماعيا كبيرا بين الناس في فترة تاريخية ماضية، كانت لها المهمة الكاملة للتأطير الاجتماعي و في بناء أقاليم جغرافية دينية سياسية، و ممثلة السلطة الشرعية في المغرب منذ انتشارها، تأخذ شكل دويلات صغيرة حسب عدد الطريقة المتواجدة على أرضيته و تتمثل الوظيفة الرمزية السياسية لهذه الطقوس النسائية.

1 - وظيفة دفاعية؛ جاءت هذه الطقوس ملازمة مع ظهور الخطاب اللاغي لها الذي مثلته "الأحزاب السياسية" حيث أخذت النساء على عاتقهن مهمة المحافظة على هذه الطقوس التي عمدت بعض الخطابات القضاء عليها باسم التصحيح الديني لكن كثافة هذه الممارسات النسائية للمحافظة عن الثقافة و الهوية و إحياء هذه الطقوس كانت لها وظيفة دفاعية فعالة مقارنة مع التجمعات و المسيرات الوطنية التي قامت بها النساء من أجل المحافظة على البلاد.

2 - وظيفة التوحيد و التضامن؛ إن تجمع النساء عند الأولياء، اللامات و سائرهما كانت لها وظيفة التوحيد بين المجموعات النسائية و بالتالي توحيد المجتمع و تضامنه في فترة بدأ فيها التفرق، فرغم عشائرية هذا المجتمع إلا أن هذه الطقوس أدت "وظيفة التوحيد" وذلك لعدة أسباب منها:

دور الولي سيد الشيخ الغائب في توحيد الناس من خلال التجمعات التي تقام على مستوى قبته، هذه الوظيفة التي فشلت مؤسسات الدولة في تأديتها، فلم تستطع تشكيل علاقات في دراستها Evans, Pritchard Fortes معنوية مع الشعب، الشيء نفسه استنتجه

لننظم السياسية الإفريقية، فالولي و حتى أتباعه (الشيخ، المقدم، المقدمة) هو رمز للوحدة و تمثل أعلى العلاقات السياسية، فهو مصدر القوة التي تحافظ على تماسك السلطة متمركزة على قواعد أخلاقية، مقبولة كمسلمات، و ارتباط الناس (النساء) برموزه يعطي المجتمع تضامنه و وحدت⁸.

و بالتالي الأماكن و الشخصيات المقدسة (الأولياء) تمثل الوحدة و التضامن فتصبح بذلك نظاما اجتماعيا ثقافيا محسوسا منسجما، لأن الولي وسيلة قوية للمراقبة الاجتماعية التي لم تستطع المؤسسات الحديثة القيام بها.



نشاهد على اليمين في الخلف النخلة الشهيرة وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي خارج سور المدينة.



كرمات اولياء الصالحين بالجزائر



أضرحة سيدي مبروك





ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي احتفائية ذكرى المولد النبوي الشريف من خلال التقاليد التي تميز الجزائر العاصمة

الإحالات والهوامش:

- 1- ابن منظور لسان العرب، معجم لغوي علمي قدمه الشيخ عبد الله الغلالي، ج 3، مادة وصل، دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.
- 2-Bernard lamiz et Ahmed silem, Dictionnaire Encycloclodique des science DE :l'information et de la communication, Edition Ellipses paris, 1997, p 120.
- 3- خليل أبو الأصبع، الاتصال الجماهيري، دار الشروق والتوزيع، عمان، 1997، ط 1، ص 11.
- 4- د. أبو عرقوت إبراهيم، الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار المجد للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1993، ص 17.
- 5- قاسم سيزار، نصر حامد أبو زيد، 'مدخل إلى السيميولوجيا'، دار إلياس العصرية، القاهرة، دط، دت، ص 149.
- 6- أبو الأصبع خليل صالح، الاتصال الجماهيري، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 1999، ص 15.
- 7- أبو الأصبع خليل صالح، الاتصال الجماهيري، م س، ص 13.
- 8- خديجة الزاوي، 'النساء و طقوس الأولياء الصالحين'، م س، ص 140.